الأنـــــا في أدب أســـامة بن منقذ

ميسر سليم الشورة *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠/١ /٢٠٢١م. تاريخ قبول البحث: ٣/٥ /٢٠٢١م.

ملخص

تتناول هذه الدراسة شاعراً يحظى بقدرٍ كبير من البطولة والشجاعة والمزايا القتالية التي شكّلت جانباً مهماً من شخصيّته في عصر؛ تجافت فيه القلوب، وغصت فيه الأرواح، وأغلقت فيه الأبواب؛ لكنّ صوت "الأنا" يبقى يصدح عالياً مدوياً، معبراً عن خلجات النفس، وتقلبات الروح، فتتناوب مشاعره تجاه مراحل حياته، يعيش مرحلة الفروسية، ويعشقها؛ لأنها ديدنٌ سار عليه نهج العائلة، لكنه يتعثَّر في المراحل الباقية من عمره، ربما يراها غيره طبيعية؛ تعترض الإنسان، ولا بدَّ منها، لكنَّ أسامة بن منقذ يرفضها بكل تفاصيلها، ويلوم دهره ويحمّله جُلّ مصائبه، فتُثقل كاهله، لكنه لا يستسلم لها، يعللها في حتمية الموت التي يؤمن به إيماناً قاطعاً.

الكلمات الدالة: الفروسية، الأنا، الشيخوخة، الموت، الحياة، الفارس.

* قسم اللغة العربية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

"The Self" in the Literature of Osamah Bin Monqith

Dr. Mysar Salem AL-Shwarah

Abstract

This study deals with a poet who enjoys an eminent status of heroism, courage and combat advantages in a period when hardheartedness takes over and hearts loathe each other, souls drowned in it,, and doors were tightly closed. However, the poet's voice is still banging high, howling into the horizon signifying the internal feelings and emotions as well as the spiritual changeable moods. His emotions alternate towards his life stages .He lives and adores the stage of cavalry as a faith followed by his family. However, he stumbles in the remaining stages of his life which might be viewed by others as natural and inevitable to face. Anyway, this is completely rejected with all details by Osamah Bon Monqith who blames time and accuses it most of his misfortunes which overburden his shoulders to which he does not surrender, rather he attributes it to the inevitability of death which he absolutely believes in.

Key words: Chivalry, Self, Aging, Death, Life, The knight .

المقدمة:

لم يكن أسامة كغيره من فرسان عصره في مراحل حياته، فقد تفرّد تفرُّداً عجيباً، فارساً منذ نعومة أظفاره، يقف على مصاعب الأمور ويخوض غمارها دون خوفٍ أو وجل، فالنفس قد اعتلت زمام الحق، وجُبلت على الإقدام والتأهب، فقد كان للبيئة التي ترعرع فيها أكبر الأثر في فروسيته وإقدامه، والأثر الأكبر الذي جعل منه فارساً مغواراً هو العائلة وديدنها في التربية، فقد تربّى في عائلة لم تألُ جهداً في غرس مبادئ الاعتزاز بالنفس والتّصدي للصّعاب، وخوض الحروب دون وجل من الأجل، فالأجل محتوم، قضيةٌ تؤمن بها عائلته مفادُها أن المخاطر لا تقرّب الآجال، فخوض الصّعاب شرفٌ وليس حتفاً يخشاه المرء، رؤية تستحقُّ الوقوف مطولاً، أن تؤمن هذه العائلة بهذهِ المبادئ التي يصبو إليها الإنسان بطبعه وفطرته، هذا بالإضافة إلى منهج تربيةٍ يتّبعه والد أسامة في تربيته، فيجعل من نفسه أنموذجاً يُعتَدُّ به من يراه، فكيف بالابن حينما يرافقه في حلِّه وترحاله، وتكون الأعمال مرأى العين، فيجلهّا الابن وتغرس في وجدانه ويتمثّلها على الفور، ويتقنها لأنها من حبيب، فكلُّ ما هو من الحبيب محبوب، يراها أسامة بعين المُحِبّ لوالده، فيحبُّها، أضف إلى ذلك ما أراده والد أسامة لأسامة، فهذا ديدنه لكنه يعي ماذا يصنع؛ فهو يربّي ويؤدِّب ويؤدي رسالة سامية، تبعث في نفس المؤدَّب الأمن والطمأنينة والثقة والصدق، لأنها قائمة على مبدأ لا يزعزع النفس مبدأ قلما نجده في أسلوب المربّي إلا وهو القدوة الحسنة، وهذا ديدنُ شفيعنا وحبيبنا محمد "عليه أفضل الصلاة والتسليم" فالوعي الأبويّ تّمثل في ذلك على أكمل وجه، والنبوغ الطُّفولي اقترض الشمائل والخصائل، حتى ارتسمت معالمه واعتلت طبائعه، وثبتت قوائمه.

ظهرت "الأنا" جلية في نفسه، تنتزع النقائص والكبوات، فتُسيّره بطلاً فارساً مغواراً متفرّسا في كثير من الأمور التي خالطها وعايشها في حياته، فالمراحل التي مرَّ بها الفارس أسامة ابن منقذ تختلف عن أترابه في تلك الحقبة الزمنية التي كان لها أيضاً الأثر الأكبر في بروز "الأنا" عند أسامة بن منقذ. فقد اشتملت حياته –رحمه الله– على مصافات حربية ونعني بها اصطفاف جيشين للمنازلة[١] .

أسامة بن منقذ في سطور:

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي ابن محمد بن نصر بن

(١) الكيلاني، الأمير الفارس والأديب الشاعر أسامة بن منقذ –سيرة حياته– ص٤٣.

هاشم بن سوار بن زياد بن رغيب بن مكحول بن عمرو بن الحارث.... [١]، الملقّب بأبي المظفّر بن أبي سلامة بن أبي الحسن بن أبي المتوّج الكناني الشَّيزري، الملقَّب بـ (مؤيَّد الدولة، أو أبو سلامة)[٢].

ولد أسامة يوم الأحد السّابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨هـ/ يوليو سنة ١٠٩٥م، وقد أكَّد العماد الأصفهانـــي هذا الخبر، إذ سمعه من أسامة في دمشـــق سنة إحدى وتسعـــين وخمســـمائة ٥٩١هـ، وذلك لمّا سُئل عن تاريخ ولادته فقال: "ولدت سنة ثماني وثمانين وأربعمائة، أي ٤٨٨هـ"[٣].

نشأ أسامة بن منقذ في بيئةٍ ثقافيةٍ أدبيةٍ خاصةٍ متميزةٍ، كانت معقلاً من معاقل العلم والأدب، تتسم بالشجاعة والفروسية، فتلقى تعليمه على أيدي أدباء وفقهاء ومؤرخين، كما اطّلع على تراث العرب من شعرٍ ونثرٍ، واطلعّ على التاريخ والسيرِّ، كما علّمه أبوه النجوم ومواقعها، وتمرّس بأساليب القتال والصيد[٤]، توفي أسامة في الثالث والعشرين من رمضان سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م)[٥].

هكذا نشأ أسامة بن منقذ في كنف أسرةٍ مثقّفةٍ، تعتزّ بالعلم والفروسيَّة، فجعل الآباء ذلك مسيرة يتخطّاها الأبناء، ما جعل النَّفس تُجبل على الثّقة والاعتزاز لأنها نابعة من بيئة أصيلة إذ كانت الأفعال تسابق الأقوال، عزز ذلك الأنا في الوجود، فأصبحت تطغى على الذات الحبيسة، فيرتفع صوتها وتسير الأفعال تجاه الأقوال؛ فتصبح الأنا مسيطرة على الوجود. تجسدّت صورة البطل الفارس في نفسه ومن حوله، فقد كانت وما زالت تحتلُّ الفروسية مكانة رفيعة عند العرب، فنظرة التبجيل والإقدام للفارس لسان حالهم والمعبر عن أتراحهم قبل أفراحهم، والمدافع الرائد عن ممتلكاتهم، لذا نراها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالشعر آنذاك، ونلمح ذلك جلياً في أشعار الفارس أسامة بن منقذ.

كانت الفروسيَّة مظهراً من مظاهر الحياة، وكانت الطابع المميّز للحياة، والسمة الغالبة على طبائع العرب، نشأت نتيجة عوامل اجتماعيةٍ وأخلاقيةٍ معينة وحربية، وتطورت وفق أساليب حيوية

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، ج٢، دار بيروت للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، (د، ط)، ١٩٩٥م، ص٣٠٣.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكّار، ج٣، دار الفكر للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط١، (د.ت)، ص٦١، ١٣.

(٣) عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشّام)، تح: شكري فيصل، ج١، المطبعة الهاشمية، دمشق، سوريا (د، ط)، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥، ص٤٩٨.

(٤) أسامة بن منقذ، ديوان الفارس أسامة بن منقذ، تح، أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٣م، ص٥٠.

(٥) أسامة بن منقذ، لباب الآداب، تح، أحمد محمد شاكر، دار تراثية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط ١٤٠٧.

شاملة، وقد ساعدت على تطوره فطرة عربية سليمة، ولم يكن هذا المظهر إلاّ حصيلة الطبيعة الصحراوية الواسعة التي أكسبت العربيّ القوّة والصّبر والشَّجاعة والكرم والمروءة، وقد تميَّزت هذه الظاهرة بميزاتٍ واضحة، وأصبحت لها تقاليد معروفة، حمل لواءها أولئك الفرسان الأماجد الذين تألقت أسماؤهم في عالم الإنسانية وبذلك صاروا مثالاً للتضحية والكرم والبطولة.(١)

ولقد كان العرب لا يهنّئون بعضهم إلاّ في ثلاث حالاتٍ منها؛ نبوغ أبنائهم في قول الشعر وفيه يقول بن رشيق القيرواني: "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان"؛ لأنه حمايةٌ لأعراضهم وتخليداً لمآثرهم، فكانوا لا يهنئون إلاّ بغلامٍ يولد أو شاعرٍ ينبغ فيهم أو فرس تنتج(٢).

فهذا ديدن أسامة بن منقذ أحد فرسان العرب الذين يشهد لهم التاريخ بالبطولة والفروسية والإمارة، فقد أبدع وتفَّنن في ذلك، فهو الفارس الأمير الشاعر البطل، قاتل قتال الشُّجعان، وعبَّر عن فروسيته بقلمه تعبيراً صادقاً، فقد برعَ وأبدعَ في تكوينه وفي تعبيره في ساحات الوغى، كيف لا يبدع وقد منّ عليه الخالق بقوَّة البأس وفصاحة اللسان.

فهو كما نقل ابن العديم عن السّمعاني يصفه في قوله: "أسامة أميرٌ فاضلٌ، غزيرُ الفضل، وافر العقل، حسنُ التدبير، مليح التصانيف، عارفٌ باللّغة والأدب، مجوّد في صفة الشّعر، من بيت الإمارة والفروسية واللّغة"(٣).

أسامة فارسٌ اجتمعت فيه كلّ صفات الفارس المغوار الشُّجاع الصبور، الذي لا يزعزعه خطبٌ ولا كبوة، كل ذلك جعل نبرات الأنا تتعالى عنده فيترجمها أبياتاً يفخر بنفسه وقد حُق له ذلك، حين يقول: (٤)

متى رآني الشّـــامتُون ضَرِعـــــاً ... لنكبةٍ تَعرُقُنِـي عَـــرق المُـــدَى

هــم يعلمـــون أنَّني أصلَـــــبُ ... من صُمِّ الصّفَا فما عـــدَا مما بـدَا

(١) نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر الجاهلي، دار التضامن، بغداد، ط١، ١٩٦٤، ص٢٥-٢٦.

(٢) ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح، محمد محيي الدين عبد الحميد، ج١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٧٢، ص٦٥.

(٣) عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشّام)، ج١، ص٤٩٨.

(٤) أسامة بن منقذ، ديوان الفارس أسامة بن منقذ، أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، تح: عالم الكتب، بيوت، لبنان، ط٢، ١٩٨٣م، ص٢٦١.

هل بزَّنِي الخطبُ سوى وفْرِي الذي كان مُباحـــاً للنّـــوالِ والنّـــدى

هُمُ يرون المال ذخـــــراً باقيـــاً إنمـــا ذُخـــر الفتى أن يُحمـــدا

لم يكن أسامة بن منقذ يهاب الرّدى، فقد كان يتصدَّى للموت بكل غبطةٍ وسرور، وكأنه ينتظر القادم الأجمل؛ ذلك لأنه يؤمن برؤيةٍ قد خطَّها له والده بأن خوض المعارك والمخاطر لا يؤدي إلى حتمية الأجل، فالأجل مكتوب ومحتوم فكل ذلك لا يخيف أسامة بن منقذ، إيمانٌ يتجلَّى عظمته في نفس المحارب الفارس قلما نجده عند غيره، ذلك نابعٌ من تربيته منذ الصغر فنشأ وشبَّ وشاب عليها، عقيدة لا تنتزع، فظهر ذلك جلياً في شخصيته وفي أقواله، لديه قناعة أنه في كلتا الحالتين فائز، فإن ظفر في معاركه ضد عدوه نال شرف الفوز والبطولة، وإن مات سيظل ذكره خالداً عبر الزمن والمديح والفخر والثناء عليه دائماً، يقول: (١)

سأُنْفِق وَفْري في اكتسَـــابِ مكارِمٍ أظَلّلُ بها بعد الممَاتِ مخـــــلّداً

وأسعَى إلى الهيجاءِ، لا أرهبُ الرَّدى ولا أتَخَشَّى عَامِـــــلا ومهَنَّـــدَا

بكـــــلّ فتىً يلقى المنيَّةَ ضاحِكاً كأنّ له في القتلِ عَيّشـــاً مُجَدَّدَا

فإن نلتُ ما أرجو فللجود ثمَّ لـــــي وإن مِتُّ خَلَّفتُ الثنـــاء المؤبَّدا

تعلق قلب أسامة بالقتال والحرب والفروسية، فأصبح هاجساً يحبُّه ويتوق إليه، وكان شديد الرَّغبة في مواجهة الموت فيتجلَّى ذلك في منظومه حيث يقول: (٢)

لكان بقلبي هـــمٌّ زاد سُـــــــــرتَهُ وهمّ إذا قلت يخبو زندهُ قدحـــــــا

أظن بي العجز في الحرب العوان وهَلْ لها سِوايَ من الأبطال قطبُ رحى

يبدو أن الشوق والحنين للقتال صفة يجتمع عليها الفرسان، يتجلى ذلك في قوله: (٣)

هَذَا كتابُ فَتًى أَحَلَّتْه النَّـــوى أوطانهـــــا ونبتْ به أوطانُهُ

---

(١) أسامة بن منقذ، ديوان الفارس أسامة بن منقذ، أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، تح: عالم الكتب، بيوت، لبنان، ط٢، ١٩٨٣م، ٢٨٤.

(٢) أسامة بن منقذ، ديوان الفارس أسامة بن منقذ، أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، تح: عالم الكتب، بيوت، لبنان، ط٢، ١٩٨٣م، ص ٢١٨.

(٣) أسامة بن منقذ، ديوان الفارس أسامة بن منقذ، أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، تح: عالم الكتب، بيوت، لبنان، ط٢، ١٩٨٣م، ص٢٠٠.

شطتْ بـــه عمن يحبُ ديّارُهُ وتفرَّقتْ أيّدِي سَـــــبَا إخوانُهُ
مُتَتَابِعِ الزَّفرَاتِ بَين ضُلوعِــه قلبٌ يبوحُ بّســـره خفقاتُـــهُ
تأوي إليه مع الظلام همومـه وتَذودُه عن نَومـــه أَشجـــانُه
أَلِفَتْ مُقَارَعَةَ الكُمَــاةِ جِيادُه وسرى الهواجر لا ينى ذملانه
يومان أجمع دهرهُ إمـــا سَرى أو يَومُ حربٍ تَلتَظى نِيرانـــه

تتعثر الخطوات فتقف حائلاً أمام الحلم المنشود، ليس بالحلم بل حقيقة طالما انتظرها الجميع إلى تلك الفتى الفارس المغوار، تتناسب مع فروسيته فهي له وهو لها، لكنها تلفت انتباه من حوله، فيكيدوا له كيد أخوه يوسف "عليه السلام" فيخرج هائماً مغترباً لا يليق به المكان، فتكون فروسيته ونباغته ونباهته سبباً في غربته، لكن الترتيب الإلهي يبعدهُ عن كارثة محتَّمة، زلزال يصيب المكان فينجو القليل القليل، تتدخل القدرة الإلهية في أمور البشر فينجو أسامة بن منقذ بسبب غربته، لكنه لا يخشى الموت، وتوق للخلود فيراها سبباً في شقائه وتعاسته، يقول:(١)

شَقِيت بما أحْرزتهُ من فضـــائلٍ بأيســـرِها يحظَى الشّقيُّ ويسعَدُ
وفي النّفسِ، إن نَاجَيْتُها باطَّراحِها وبالزُّهِـــــد فِيها، فترةُ وتـــردُّدُ
فياربّ أَلْهمْهـــا الرشادَ بترِكهـــا فإنَّكَ تهدِى من تشـــاءُ وتُرْشِدِ

تتبلور مراحل العمر في شخصيته فينهل منها البخس والثمين؛ مما يثري حضوره انطلاقاً من إحساسه العميق بذاته وفروسيتها، كما كان للأحوال السياسية والحربية التي عاشها أسامة بن منقذ أثر واضح في رسم معالم كثير من الأمور التي يؤمن بها أسامة بن منقذ.

مفهوم الأنا:

يعدّ مفهوم الأنا من أكثر المفاهيم تعقيداً سواء في علم الاجتماع أو الفلسفة أو علم النفس أو في الدراسات الأدبية، نظراً لكثرة الآراء والنقاشات التي تدور حول هذا المفهوم والغوص في أعماقه، لذلك تعدَّدت التعريفات وتنوعت حول هذا المفهوم، فمفهوم الأنا وحدوده ضبابيان إلى الحد الأقصى(٢).

(١) أسامة بن منقذ، ديوان الفارس أسامة بن منقذ، أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، تح: عالم الكتب، بيوت، لبنان، ط٢، ١٩٨٣م، ص٢٧٨.

(٢) نور بير سيلامي، المعجم الموسوعي في علم النفس، ج١، ترجمة وجيه أسعد، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠١، ص٣١١.

ثمة تلازم تلقائي بين مفهوم الأنا ومفهوم الآخر، حيث حضور أي منهما يستدعي –جدلاً– حضور الآخر، فلا يمكن أن يكون هناك أنا دون الآخر، فكلاهما مرآة الأخر، "فالآخر يمثل جزءاً من وجودنا ذاته، كما نمثّل نحن جزءاً من وجوده"(١).

يبدو أن هذا التلازم قائمٌ وفقاً لتشكيل كل منهما، فالأنا تبدو جلية حينما يقابلها الآخر، لأن صورتنا عن ذاتنا لا تتشكل بمعزل عن صورة الآخر لدينا. أي أن "الأنا" لا تكون إلا من خلال تمايزها عن الآخر، فذلك يدخل إلى الآخر وإلى مقومات الأنا، وطبيعة العلاقة بينهما تختلف باختلاف الظروف والمحدّدات والتباعد والتقارب بينهما، فتختلف الصورة من حين إلى الآخر، كما تتجدَّد صورة الآخر من خلال علاقته الإيجابية أو السلبية بالأنا. فحينما تكون العلاقة إيجابية تبحث الأنا عن الأخرى وتتقبله وحينما تكون العلاقة سلبية ترفضه، وتبرز ذاتها بشكل جلي لتتمايز ويظهر بروزها عليه، فنحن بحاجة إلى الآخر لنصون الأنا العُليا من طغيانها وجبروتها.

لذا تتمثل الأنا في مشوار أسامة بن منقذ عالماً يستجدُّ مع المعطيات والظروف التي عاشها أسامة ابن منقذ، فهي تحمل بعداً فلسفياً كوّن الهاجس الذي سيطر على حياة أسامة بن منقذ، عبر عنها أسامة بن منقذ من خلال أفعاله وأقواله وآرائه حول كثير من القضايا التي كان يسردها في كتابه الاعتبار. فحياته تكاد تكون سلسلة من المعارك المتواصلة، كما يصفها في "كتاب الاعتبار"، يقول: "فلا يظنَّ ظانٌّ أن الموت يقدمه ركوب الخطر، ولا تؤخره شدة الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال، وتقحمت المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان، وضُربت بالسيوف، وطعنت بالرّماح، وجُرحت بالسّهام، وأنا من الأجل في حصنٍ حصين إلى أن بلغت تمام التسعين، فرأيت الصّحة والبقاء(٢) فأنا كما قلت:

مع الثمانين عاث الدّهرُ في جلدي ... وساءني ضعفُ رجلي واضطرابُ يدي

إذا كتبتُ فخطّي جـــدَّ مُضطرب ... كخطّ مُرتَعِـــش الكـــفّين مرتعـــــد

وإن مشيت وفي كفّي العصا ثقلت ... رجلي كأنّي أخوضُ الوحـــلَ في الجلد

فقل لمـــن يتمنّى طـــول مدتـــه ... هذي عواقب طـــول العُمْر والمُـــدد

(١) سامية عبد الرحمن، نيقولاي برديائيف، الرؤية الإبداعية للأنا والآخر: دراسة في الوجود الإنساني، مقالة في كتاب جدلية الذات والآخر في الثقافة العربية (أبحاث وأوراق عمل)، مركز الدراسات الإنسانية والمستقبليات، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٢، ص٤٣٥.

(٢) أسامة بن منقذ، تحرير فيليب حتيّ، الاعتبار، ط١، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ص١٦٣.

ضعفت القوة ووهت، وتقضّت بلهية العيش وانتهت، ونكَّسني التعمير بين الأنام، وإلى الخمول يؤول تسعُّر الظلام، يظهر صدى التحول في ذبذبات العمر عند أسامة بن منقذ فتتصدع الأنا الفارسة إلى شظايا تصدح في الآفق رافضةً واقعاً أليماً وقد أصابها الوهن.

يقف أسامة بن منقذ أمام محطات العمر متأملاً متحدياً لكل محطة فيجعل لكل منها خصوصية تليق بها، وتنسجم مع الرؤية الإنسانية، فنراها فيما تقدم يبث أحزانه وما أحدث الدهر به من وهنٍ في القوة، وضعف يتخلّل أعضاءه واحداً تلو الآخر، في قوته وصباه وضعفه وعجزه، فقد جُبلت النفس على الذات العالية التي تصدح في كل زمانٍ ومكان، لم نرهُ يبحث عن الذاتية، فهي متأصّلة في أعماقه في حلِّه وترحاله؛ لذا لم يعانِ أسامة بن منقذ النفس الهاجرة التي تجعل من الإنسان يبحث عن ذاته ولم يجدها، فيتيه في غيابات الجُبّ، متسائلاً من أنا، ومتى سأكون، وكيف سأكون، تخلو حياة أسامة بن منقذ من هذه التساؤلات، لإنه وجد نفسه منذ الصغر. فيقف أمامها شامخاً متعالياً عمَّنْ سواه ويدرك ذلك في حقيقته، فيتّجه صوب الفروسية التي تأصلت في أعماقه، ويتصالح مع ذاته حيث يظهر ذلك جلياً من خلال ما قدَّمه لنا في كتابه الاعتبار من قصص تنوب عن شخص متمرس متفرس يتقن الدور بكل احترافية ويدرك بأنّه يتقن، فتطفو على كتاباته الأنا المفعمة بالقوة والصيرورة، فينعم المكان والقارئ رائحة القوة التي تسيطر على عقل كل من حوله، مما ورد في كتابه قوله[١]:

"قلت: قاتلت السّباع في عدَّة مواقف لا أحصيها، وقتلت عدّةً منها ما شركني في قتلها أحد، سوى ما شاركني فيه غيري، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري، فمن ذلك أن الأسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه، وفيه غفلة وبله ما لم يُجرح فحينئذ هو الأسد، وذلك الوقت يُخاف منه، وإذا خرج من غاب أو أجمة وحمل على الخيل فلا بدَّ له من الرجوع إلى الأجمة التي خرج منها، ولو أنَّ النيران في طريقه وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة، فمتى حمل على الخيل وقفت في طريق رجوعه، قبل أن يُجرح، فإذا رجع تركته إلى أن يتجاوزني وطعنته".

يركّز أسامة بن منقذ في كتابه على التجربة التي كانت الأساس في تربيته فقد كان يجرّب كل أفعال والده ثم يأتي الوالد مراقباً ومتفقداً ومعقباً لأفعاله، لتنحو منحى الصواب فهذا المعلم وذاك المتعلم، فيحيل الضمائر إلى نفسه حينما يتحدّث عن وقائع عايشها مع والده وعمّه، أو سمعها من غيرهم، يقف عند حوادث تنبئ بآفاق عالية تنوب عن سيمفونية الحياة، فيتأتى الحذر من بعضها، ونقتنص الفائدة من الأخرى، ينقل لنا عالماً عايشها في زمن الحروب الصليبية، فينكشف الغطاء

(١) أسامة بن منقذ، تحرير فيليب حتيّ، الاعتبار، ط١، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ص١٠٩.

ليتسنى للقارئ العلم الوفير حول قضايا ربما تكون عالقة في ذهن الكثير، لكن أسامة بن منقذ يقف منها موقف الرضيع من أمه فيسردها بذاته التي تطغى على المكان، لا يقف محايداً بل هو من يتولى زمام الأمور أجمعها، فيراها غيره بعينه ومما ورد في كتابه قوله(١):

الأسد سيد الحيوانات:

"ولقد رأيت رأس الأسد يُحمل إلى بعض دورنا فترى السنانير تهرب من تلك الدار وترمي نفسها من السطوحات، وما رأت الأسد قط، وكنَّا نسلخ الأسد ونرميه من الحصن إلى سفح الباشورة فلا يقربه الكلاب ولا شيء من الطير، وإذا رأت القيقان اللحم نزلت إليه ثم دنت منه صاحت وطارت، وما أشبه هيبة الأسد على الحيوان بهيبة العقاب على الطير فإن العُقاب يبصره الفروج الذي ما رأى العقاب قطُّ، فيصيح وينهزم، هيبة ألقاها الله تعالى في قلوب الحيوان لهذين الحيوانين".

نلمح وبشكل ملحوظ إظهار الشجاعة التي تميّز بها أسامة بن منقذ، والتي تُعَدُّ من أبرز صفاته، حيث كانت أحد أسباب إصراره وفروسيته وخوضه المعارك بلا خوف أو وجل، لإيمانه بحتمية الموت.

إن من يتتبّع صوت "الأنا" عند أسامة بن منقذ يستطيع أن يلاحظ النغمة الحزينة التي يصدح بها، فهي لا تبدو ذاتاً تفاؤلية انبساطية، بل هي –على الأغلب– ذاتاً حزينة بائسة شاكية من الزمن وعواقبه وأنات الغربة الموجعة. هذه النغمة التي تعبّر عن حالة صعبة تسيطر على نفسية الأنا تتمثّل بشعورها بالفقد الداخلي، محمّلة بشحنة عارمة من الحزن الناتج عن أسباب تتعدد وتختلف من حين إلى آخر، هذا بالإضافة إلى طبيعة العصر فقد شهد أحداثاً جساماً، ولم تكن هذه الأحداث تسير على وتيرة واحدة، فقد ولَّدت هذه الأحداث شعوراً بالقلق العام لدى عدد غير قليل من شعراء العصر، فأكثروا من الشكوى والتذمر والتعبير عن الأحزان والمخاوف المبهمة، وأسامة يصف عصره بأنه "عصر بهيم" تلفه الظلمات وأيامه عابسة، يقول(٢):

أصبحتُ في زمنٍ يَشيبُ لَجْورِه فودُ الجبينِ، ويَهْرَمُ المولُــودُ
وإذا شكوْنَا اليومَ، ثُم أتَى غَــدٌ قُلْنا: ألا يا ليتَ أمــسِ يعودُ
أصبحتُ في زمنٍ يَشيبُ لَجْورِه فودُ الجبينِ، ويَهْرَمُ المولُــودُ
وإذا شكوْنَا اليومَ، ثُم أتَى غَــدٌ قُلْنا: ألا يا ليتَ أمــسِ يعودُ

(١) أسامة بن منقذ، تحرير فيليب حتيٍّ، الاعتبار، ط١، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ص١٠٨.

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد (عالــم الكتب، القاهرة)، ص١٧٢– ١٧٣– ١٩٣– ٢٤٨.

يحمّل أسامة بن منقذ الزّمن مسؤولية العناء والحزن المسيطر على مشاعره، فيقف من الزمن موقفاً معادياً، فهو يعمل ضدَّه باستمرار، ويجري تياره في اتجاه معاكس لأماله وطموحاته، لذا يقف أسامة بن منقذ إزاء ذلك متعجباً حزيناً بائساً متسائلاً مما يخبئه له الزمن، فيقول[١]:

مالـي وللأيـام! كـــمْ تُصْمِي نَوافِذُهـــا فُـؤداي

رَنّقْنَ مـــــن وِرْدِي وأمْ حَلَ جَـوْرُها عمـداً مــرادي

وَقصدْنَنـــي بنوائـــبٍ وَاليـنَهُـنّ بـــــلا اقتصـاد

أيقظت الفجائع التي ألمّت بأسامة بن منقذ "الأنا" الحزينة التي سيطرت على إحساسه جاءت على شكل نوبات متتالية من الحزن، فقد توفيّ ابنه أبو بكر صغيراً، وفقد أهله وذويه في الزلزال الذي ضرب شَيْزَرَ سنة ٥٥٢هـ، وفقد عدداً من الأهل والأحبة، وكما كان ذهاب مكتبته العامرة من أشد الأمور إيلاماً له، وفي ذلك يقول[٢]: "فإنها كانت أربعة آلاف من الكتب الفاخرة، فإنّ ذهابها حزازة في قلبي ما عشت"، فقد كانت حياته مشحونة بالآلام والإحباطات التي فجَّرت الأنا الحزينة في نفسه، فالمرحلة الأولى من حياته كانت هانئة هادئة في كنف والده وعمه، لذا شبَّ فارساً يبهر الأبصار بشجاعته وفروسيته وثبات قلبه، لكنه لم يكن يعلم بأنها الإرهاصات الأولى لما يترتب على هذه الفروسية والشجاعة، فقد أثارت المخاوف كما أثارت الإعجاب، شكّل ذلك نقطة محورية في حياة أسامة بن منقذ جعله يجوب الأفق متأملاً النفس وأشرارها وما تجتلبه الدنيا له، فيقف موقفاً مغايراً يعزه إلى الزمن الذي يقف معانداً له، مخاوف سببها الحسد والخشية على السلطان؛ فقد أحسّ عمّه الذي كان يتعهده، أن أسامة سيشكل خطراً على أولاده الصغار، وأنه سيحول دونهم ودون الملك، فتغيّر عليه، ونفاه من شيزر وحيداً سنة ٥٢٥هـ.

يولّي أسامة وجهه صوب دمشق، فيعيش في رعاية وزيرها معين الدين أنر، ثم بعد ذلك يرحل صوب مصر، وقد كانت شؤون الحكم في القاهرة مضطربة اضطراباً شديداً، فيشارك وينغمس أسامة فيها ويكتوي بنيرانها، لكن الوشاة لم يتركوا أسامة يهنأ بأي مكان، فلم تكن حياته لتخلو من الأحداث المحزنة، غدر الفرنجة بأهله الذين ساروا إليه من مصر بعد أن أخذ نور الدين لهم الأمان، هذا عندما عاد أسامة إلى دمشق بعد أن تولى الحكم فيها نور الدين محمود، فقد نهب الفرنجة ما في مراكبهم، وكان ذهاب مكتبته العامرة في هذه الحادثة أشدَّ الأمور إيلاماً له، غير أنّ أشدَّ هذه الأحداث تأثيراً في

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد (عالم الكتب، القاهرة)، ص٦٠.

(٢) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٣٥.

نفس أسامة هو مصرع ذويه في الزلزال الذي ضرب شيزر سنة ٥٥٢هـ، إذ أسلمه ذلك إلى حزن عميق، وشعور قوي بالوحدة وفقدان النصير(١).

فقد عظمت –كما يقول–: "الرزيّة حتى غاضت بوادر الدموع، وتتابعت الزّفرات حتى أقامت حنايا الضلوع، وما اقتصرت حوادث الزمان على ضراب الديار دون هلاك السكان، بل كان هلاكهم أجمع، كارتداد الطرف أو أسرع"(٢). وتحت وطأة هذا الإحساس ألَّف أسامة كتاب (المنازل والديار) وقد جمع فيه مادة كبيرة حول ما قاله الشعراء في أوطانهم بما يتوافق مع وطنه وحاله، وفي ذلك يقول: "فإني دعاني إلى جمع هذا الكتاب ما نال بلادي وأوطاني من الخراب...." (٣)

ولّد ذلك في نفس أسامة بن منقذ حزناً عميقاً ،تمثل في الأحداث الجسام التي عاصرها أسامة ما بعث القلق والخوف في نفسه تجاه الزمن، فلزم بيته يصارع الألم والحسرة إلى أن تولّى صلاح الدين حكم دمشق، فاستدعاه، وأكرمه، وقرّبه إليه، غير أنّ ذلك لم يدم طويلاً، فقد تحوّل عن صلاح الدين وجفاه لسبب غير معروف، ثم عاد إلى الاعتزال يطوي في نفسه حزناً عميقاً نحسّه في قوله: "وكنت أظنُّ أنّ الزَّمان لا يبلى جديده، ولا يهي شديده، وأني إذا عدت إلى الشام وجدت به أيامي كعهدي، ما غيّرها الزمان بعدي، فلما عدت كذّبتني وعود المطامع، وكان ذلك الظن كالسرّاب اللامع، اللهم غفراً، هذه جملة إعتراضية عرضت، ونفثة همّ أقضت ثم أنقضت".(٤)

كثرت التجارب التي مرّ بها أسامة بن منقذ؛ لذا تشكَّلت لديه رؤى حول كثير من القضايا التي تجول في خاطره، فأصبحت نفسه لا تتقبَّل إلا الأنا، فلم يعد يثق بالقريب قبل البعيد، لأن محنته في علاقاته الاجتماعية لم تكن مقصورة على ذويه، وإنما شملت بعض أصدقائه، فقد ضاق صدره بمن أفسدوا عليه حياته، فتذهب به الظنون كلَّ مذهب، فهذه التجارب القاسية التي عاشها أسامة أرهقت إحساسه، وجعلته يرصد أوجه النقص في العلاقات الاجتماعية.

(١) الرقب، شفيق، شعراء شاميون في العصر الأيوبي، ط١، ٢٠٠٩م، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ص٥٤.

(٢) أسامة بن منقذ: المنازل والديـــار، تحقيق مصطفى حجازي، دار سعاد الصـــباح للنشر والتوزيع، القاهـــرة، ط٢، ١٩٩٢م، ص٤.

(٣) أسامة بن منقذ: المنازل والديار، تحقيق مصطفى حجازي، دار ســـعاد الصباح للنشـــر والتوزيـــع، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م، ص (٣ – ٤).

(٤) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٢٠٩.

عتمة العمر (الشيخوخة) وصداها في الأنا:

من أجمل صفات شعر الفروسية ذلك الشعر الذي يمتزج فيه الفخر والحماسة بالألم والشكوى، والحزن والبطولة والإقدام، فبتضارب هذه العوامل يُخلق للشعر جوٌّ يؤثر في النفس ويستولي على الألباب، وهذا ما وجدناه عند أسامة بن منقذ حيث كان له نصيب وافر من الألم والحسرة والحزن، الذي جعله يعرض صوراً غاية في الروعة؛ وذلك لما تأتى له من ظروف سياسية واجتماعية جعلها منبعاً يغترف منها إبداعه.

وقد تعدّدت مظاهر العداوة بين أسامة بن منقذ والزمن، يترجمها بمظهر كان له الأثر الأكبر في نفسه، إلا وهو إحساسه بالتغير الذي يحدثه الزمن في الإنسان والأشياء.

وقد أطال الوقوف عند معاني التغيّر، مثل: نزوحه عن مرحلة الشباب، وتبدّل أصحابه وصدود أحبابه عنه، محملاً الزمن مسؤولية ذلك: يعبّر عن ذلك قائلاً[١]:

أصبحتُ لا أشكُو الخطوبَ وإنّما ... أشكو زماناً لم يَدع لـي مُشتكَى

أفنى أخِلاّئِي وأهـــــلَ مَودَّتي ... وأباد إخوانَ الصّفاءِ وأهلَكـــــا

يقف أسامة إزاء هذا القانون الذي يشمل الكون بتقلباته متعجّباً ثائراً صامت الفؤاد، فقانون التغيّر لم يترك شيئاً إلا وشمله، إنساناً وجبالاً وبحاراً، مما يثير القلق في نفسه يعبّر عن ذلك بقوله: [٢]

أمَـــا رأوْا تقلُّـــبَ الدنيا بِنَـــا ... وفتكهَا بِمَنْ إليهَـــا أخْلَـــدَا

كم نَسَفَتْ أيدِي الخطوب جَبَلاً ... وصيَّرَتْ لُجّةَ بَحْرٍ ثَمَـــدَا

وكم أعَادَتْ ذَا ثَراءٍ مُعْدَمـــاً ... وذا قَبِيلٍ وعَدِيـــــدٍ مُفْرَدَا

لم يكن ذلك يعادل شيئاً بجانب التجربة التي عاشها أسامة بن منقذ، حيث كانت تشكل مظهر رئيسياً من مظاهر التغيّر والتحول في الزمن، لذا تعد تجربة الشيخوخة تجربة أليمة قاسية في حياة أسامة.

لم يتقبل أسامة هذه الفترة من عمره، فقد أيقظت إحساسه بالضعف والعجز تجاه الحياة. وذلك لا ينسجم مع بداية مشواره الفروسي، فقد كان لا يعرف للضعف والوهن طريقاً، فبات يعيش تحت وطأة هاجس الموت، بل أحس الموت قبل الموت، حيث يقول[٣]:

(١) الديوان، أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٣٠٢.

(٢) الديوان، أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٢٧٩.

(٣) الديوان، أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٢٧٣.

فرجَعتُ أحمْل بعد سبعينَ العصَا فأعجب لما تأتي به الأيّـــامُ

وإذا الحِمامُ أبى مُعاجلَـــةَ الفتـى فحياتهُ، لا تُكْذَبنّ، حمـــــامُ

يصوّر أسامة بن منقذ الآلام التي انهالت عليه بعد أن تقوّس ظهره، وملّ تكاليف الحياة وزهدها، وخارت قواه، فتضاربت الهواجس في نفسه، فلم يجد مهرباً منها إلا بالموت نفسه يقول[1]:

إذا عادَ ظهرُ المرءِ كالقَوسِ والعصَا له حينَ يمشي، وهي تقدمُهُ وَتَرْ

وملَّ تكاليفَ الحيـــاةِ وطُولَهـــا وأضعَفَهُ من بعدِ قوّته الكِبَـــرَ

فإنّ له في الموتِ أعظـــــمَ راحةٍ وأمْناً من الموتِ الذي كان يُنتَظرْ

يستحضر أسامة صوراً من ماضيه عندما كان فارساً لا يفارقه الرمح متأهباً للخطوب لا يخشى الموت؛ لأنه آمن بأن الآجال معقودة بزمن لا يعلمه إلا الله، لكنّ الصور تتبدل شيئاً فشيئاً، فتعتريه مسحة من الحزن مشوبة بروح العظة والاعتبار، ومشاعر الأسى والحنين، حين يربط بين الشيخوخة والموت، فيرسم صوراً مؤثرة لمعاناته النفسية والجسدية في شيخوخته فيصف الضعف الذي تسلَّل إلى كافة أعضائه، فقد أصاب الكلال بصره، والتبلد سمعه، والتقارب خطواته، واستبدّ به السّهد والأرق، وتنتابه الحسرة والمرارة حينما يتبدل رمحه بعصاه.

يقول في ذلك[2]:

لمّا بلغتُ من الحياة إلى مَـدَى قد كنتُ أهـــــواه تمنَّيتُ الرّدَا

لم يُبقِ طولُ العمـــر منّي مُنَّةً ألقَى بها صرفَ الزمان إذا اعتَدَا

فإذا نهضت حَسبتُ أني حامِـلٌ جَبَلاً وأمشِي إن مشـــيتُ مُقيّدا

وأدبّ في كفّي العصا وعَهِدتُها في الحرب تَحمِل أسـمراً ومُهنّدَا

وأبيتُ في لِين المِهادِ مُســـهّداً قَلِقَا، كأنني افترشتُ الجَلمَـــدَا

تولد في نفس أسامة من هذه المرحلة العمرية إحساس لا يفارقه، جعل من نفسه تنظر بعين العجز، وعدم القدرة على العمل، فتعذبت الروح وانتابها الألم، فأصبحت حبيسة الجسد تئن كلما لاح

(١) الديوان، أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٢٦٩.

(٢) الديوان، أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٢٠٧.

لها بريق الماضي، فنراه يتشبث بمرحلةٍ كان قوامها فروسية وشجاعة لا يخالطها ضعف أو وهن فالمقارنة حاضرة في ذهن أسامة كيف كان وكيف أصبح؟

فشكّل قضية مفصلية في "الأنا الداخلية" التي كانت تخرج على شكل أنَّات الرفض وعدم القبول، لأنه يأبى أن يكون مستسلماً لشيخوخته القاتلة، فلأنا الرافضة المعاندة تظهر جلية في أنفاسه حينما يتحدث عن آثار الزمن وما يُحدثه من تقلبات في كل مكنونات الحياة، فيقف عاجزاً أمامها لكنه يرفضها ولا يتقبلها، فيتمنى الموت بالحرب قبل أن تلمحه السنين فتأخذ منه قواه، ويفنيه الزمان.

يقول في ذلك(١):

حَتّى إذا ما عامُهـــا عنّي انقضَى ووطِئتُ فِي العامِ الذي يُستقبَلُ
حَطَمتْ قوَايَ وأوهَنت من نَهضتي وكَذا بمَنْ طلبَ السّلامَةَ تَفعــلُ
كَم قد شهِدْتُ من الحُروبِ فلَيتني في بعضِها مِن قبلِ نَكسِي أُقتلُ
والقتلُ أحســنُ بالفَتى من قبلِ أن يَبلَى، ويُفْنِيَهُ الزَّمانُ، وأجمـــلُ

تتعدّد أحزان الآلام الفقد لدى أسامة، يفجع بموت ابنه وزوال قومه بسبب الزلزال ويترك شيزر هائماً على وجهه، ويعترض أهله الفرنج وتسلب مكتبته، فتقف أنفاسه حبيسة تردد الألم والشكوة من الزمن الذي يعانده، وتتغير الأحوال من فروسية وتأهب وشجاعة إلى تأسّي وأحزان عميقة، فيصور أحزانه الدائمة.

فتصدح الأنا الحزينة في أجواء أسامة على شكل نوبات متتالية تخلفها مجموعة من الأحزان تضافرت على مشاعره أثقلت كاهله، فلم يجد من يتحمّل معه ثقل الفاجعة، فاجعة جماعية ذلك حينما فقد أهله وذويه، فعبر عن ذلك تعبيراً يشوبه الألم والحسرة استهلها بمشهد باكٍ رمز فيه إلى عواطفه الحزينة بحال الحمائم التي طال بكاؤها على الهديل ولم تتمكن الأيام والسنون أن تطفئ حرقتها.

يعبر عن ذلك بقوله(٢):

حمائِمَ الأيـــكِ هيّجتُنَّ أشـــجانا فليبكِ أصــدقُنا بثّاً وأَشـــجاناً
كم ذا الحنينُ على مرّ السّنينَ؟ أَما أفادكُنّ قديمُ العهــدِ نِســـيانا

(١) الديوان، أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٢٧١.

(٢) الديوان، أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٣٠٦.

هل ذا العويلُ على غيرِ الهَديلِ وهل فقيدكُنَّ أعــزُّ الخلـــقِ فِقدانـــا
ما وجدُ صادحَةٍ في كلّ شـــارقَةٍ تُرجِّعُ النَّوم في الأفنـــان أَلحانـــا
كما وجـــدتُ على قَومي تخوُّنَهم ريبُ المَنونِ ودهــرٌ طالَ ما خَانا

تولّد في نفس أسامة الشعور بالهدم الحضاري جراء هذهِ الحادثة التي أرهبت وجدانه، وجرَّحت مشاعره، فأطال الوقوف عندها، فتسلّلت إلى روحه معانٍ ؛لم تكن تشكل حيزاً في حياته، انعدام النصير والشعور بالغربة بعد موت قومه، صار هو اللحن الشجيّ الذي يردده أسامة، وذلك لأنه عاش فداحة الخطب والثلم الذي أصاب قلبه، تصدعت الروح بين ماضٍ جميل وحاضر حزين بائس، أيقظت هذهِ التجارب الحزينة الوعي بالمصير في نفسه، فألّحَ عليه هاجس الموت بين الحين والآخر، فالموت عنده يرتبط بحركة الزمن المفضية إلى الفناء تتشتت الرؤى وتتبعثر حول قضية مصيرية لكل إنسان على وجه الأرض، يقف أسامة مهزوماً أمامها، شديد الخوف، لكنه في لحظة يراها خلاصاً من ثقل الحياة وراحة من آلامها.

يقول[1]:

وما من تكاليف الحياة وثقلها خلاص بغير الموت، وهو مهول

توّقف أسامة طويلاً عند أحاسيسه ومشاعره، وحاول أن يجسّدها ويرسم لوحةً معبرةً تتخلّلها انفعالات الحياة التي واجهها أسامة بن منقذ، تقلبات عجيبة تعترض طريقه فيطيل الوقوف أمامها متأملاً راصداً تحركاتها؛ فتترك في نفسه عميق الأثر، فتصدح الأنا المعبرة عن خلجات الروح التي تعيش بين حنايا الماضي وسقوف المستقبل الذي يأمله أسامة بن منقذ، لكن الخاطر يأبى أن تنفرج أساريره، فيبعث نبرات الألم المشوبة بالمرارة والقسوة، تظهر الروح المثقلة بالهموم المكبلة بالأحزان لترمق العالم من حولها فتراه ليلاً دامساً، فتساءل في جوفها ماذا عسى يترك لنا القدر؟ فتتنهد ثانيةً بزفرات يشوبها الحماس والتقوى؛ فيمتزج الماضي بالحاضر في ذاكرة أسامة بن منقذ ثم يقف على عتباتها يلوم دهره ويحمّله كافة همومه، لذا نراه وقد أظهر براعة فائقة في وصف الحالة التي أصبح عليها هذا التحول العجيب بعد أن كان ذا همةٍ وعزمٍ وقوة، فها هي الأيام تتناوب عليه بخطوبها والدهر يرميه بسوء الحظّ، حتى صار يرى في نفسه الفارس الذي رمته الأيام عن قوسه فأردته بسهمه قتيلاً، فقد صوّر انكسار النفس وإظهار حالة الضعف التي أصابته بعد القوة والفروسية والشيخوخة بعد الشباب.

(١) الديوان، أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٢٨٨.

يعبر عن ذلك بقوله[١]:

أوهَتْ خطوبُ الدهرِ من هِمَمِي وفلَّت حــدّ عَزمي

ورمتنيَ الأيـــــامُ عن قوســـي فأردتني بَسهمِي

وغدَا الذين بهم أُســـــ لي الهـــم حين يُلم همَّي

شكل ذلك عند أسامة الأنا الرافضة للضعف والوهن؛ مما جعله يتمرد على مرحلة العمر التي أوهنت قواه، لم يستسلم لذلك فبقي معاتباً محمّلاً الأيام والدهر جلَّ مصائبه.

فراح يجوب آفاقه، فوجد في الموت راحة بل أعظم راحة من التعذيب والضرر، يعبر عن ذلك قائلاً[٢]:

إذا تقوّسَ ظهرُ المرءِ من كِبَرٍ فعاد كالقوسِ يمشي، والعصَا الوترُ

فالموتُ أرّوحُ أتٍ يســتريحُ بِه والعيشُ فيه له التَّعذيبُ والضّــررُ

فأسامة اعتاد حمل السّيوف والرّماح الفتاكة بأجساد الأعداء، فكان الفارس الذي يخشاه الأبطال، وينفر من مواجهته الأعداء، فها هو الآن يتعجب من هذا التحول وقد أصبح شيخاً هرماً كسى الشّيب فروة رأسه ووهن عظم بدنه، يحمل عصاً يتوكأ عليها، فما أعمق معاناته وما أشدّها، لا سيما وهو يشعر بالموت البطيء الذي أخذ يتسلل إليه، فقد نزع منه القوة الجسدية التي تمنى أن تموت معه في ساحات المعارك.

تتجسد الأنا في صور متعددة في نفس أسامة، فيعرض حياته البطولية ويصورها ويصفها التي تعد صوراً حقيقية يجسدها في مرحلة من مراحل العمر، تبقى هذه المرحلة تلح وتدق في ناقوسة، فيأبى القبول لأي مرحلةٍ أخرى لكنه يعبر تعبير الرافض لها، فنراها يكيل لها من الشتائم ما يبعث في نفس القارئ الشعور بالسآمة والغضب تجاهها، فيرفضها القارئ معه، تنسجم الرؤى حول مبادئ قد آمن بها أسامة بن منقذ فتتبعث الأنا الرافضة في نفس كليهما الشاعر والقارئ، لكنه يؤمن بقضية مفادها قضاء الله نافذ، والموت حق على الجميع لا مفر منه، يقول[٣]:

(١) الديوان، أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٣٢٣.

(٢) الديوان، أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٢٦٩.

(٣) الديوان، أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٣٢٢.

قد كانَ كَفِّي مألفـــــاً لمهنَّدٍ تُعرَى القلوبُ له وتُفرى الهـــامُ

ولأســـمْرٍ لدْنِ الكعوبِ، وِجارُه حيث استمرَّ الفكرُ والأوهـــامُ

تتزايلُ الأبطـــالُ عَنّي، مثلما نَفَرت من الأسدِ الهصـور نَعامُ

فرجعتُ أحمل بعد سبعينَ العصَا فاَعجب لما تأتي به الأيّـــامُ

الخاتمة:

بعد الوقوف على حياة أسامة بن منقذ في جميع مراحل عمره بدءاً من النشأة الأولى في البيت الفروسي والتربية الحثيثة التي كانت تعتمد القدوة الحسنة والترقب والحث على الشجاعة والإقدام، إلى أن يشتد الساعد فتظهر الفروسية والتأهب لكل المواقف لكن الرياح تعاكس المسير فتعترض الطريق كثير من الصعاب فتتشكل الأنا الرافضة، فتأتي عتمة العمر لتظهر ذلك جلياً.

وبعد توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

١. عمل أسامة بن منقذ على إبراز الصورة الحقيقية لنفسه، ليس كشاعر وإنما بطل عاش تفاصيل الفروسية على حقيقتها.
٢. لم يكن أسامة بن منقذ شاعراً وفارساً فقط، وإنما كان شخصية متعددة الجوانب.
٣. كان للأحوال الحربية والسياسية التي عاشها أسامة بن منقذ أكبر الأثر في تشكيل شخصيته وشعره.
٤. برزت شخصية أسامة في شعره من إحساسه العميق بالفروسية، فكانت العين التي ترصد عين الفارس، وليست الشاعر.
٥. لم يكن أسامة بن منقذ كغيره من الشعراء، بل تفرد تفرداً عجيباً، فكان يقف على مصاعب الأمور ويخوض غمارها دون خوف أو وجل.
٦. كانت لديه بعض المعتقدات التي يؤمن بها ولا يتخلى عنها مهما توالت عليه المحن والمصائب.

المراجع

ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح، محمد محيي الدين عبد الحميد، ج١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٧٢.

ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكّار، ج٣، دار الفكر للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط١، (د.ت).

أسامة بن منقذ، ديوان الفارس أسامة بن منقذ، أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، تح: عالم الكتب، بيوت، لبنان، ط٢، ١٩٨٣م.

أسامة بن منقذ، تحرير فيليب حتيِّ، الاعتبار، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت.

أسامة بن منقذ: المنازل والديار، تحقيق مصطفى حجازي، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.

أسامة بن منقذ، لباب الآداب، تح، أحمد محمد شاكر، دار تراثية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصـــر، ط ١٤٠٧.

الرقب، شفيق، شعراء شاميون في العصر الأيوبي، ط١، ٢٠٠٩م، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ص٥٤.

سامية عبد الرحمن، نيقولاي برديائيف، الرؤية الإبداعية للأنا والآخر: دراسة في الوجود الإنساني، مقالة في كتاب جدلية الذات والآخر في الثقافة العربية (أبحاث وأوراق عمل)، مركز الدراسات الإنسانية والمستقبليات، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٢.

عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشّام)، تح: شكري فيصل، ج١، المطبعة الهاشمية، دمشق، سوريا (د، ط)، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥.

الكيلاني، الأمير الفارس والأديب الشاعر أسامة بن منقذ –سيرة حياته–

نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر الجاهلي، دار التضامن، بغداد، ط١، ١٩٦٤.

ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، ج٢، دار بيروت للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، (د، ط)، ١٩٩٥م.

Reference:

Qayimat almasadir walmarajie : 1-abn rashiq alqyrwany: aleumdat fi muhasin alshier wadabihi, tah, muhamad muhyi aldiyn eabd alhamid, j1, dar aljyl, byrwt, lubnan, t4, 1972 2-abn aledym: bughyat altalab fi tarikh halb, th: sahil zkkar, j3, dar alfikr lilnashr waltabaeati, bayruta, lubnan, t1, (d.t).

Usamatan bin munqidhi, diwan alfaris 'usamatan bin munqidhi, 'ahmad 'ahmad bidawiin wahamid eabd almjid, th: ealam alkutb, byut, lubnan, t2, 1983m 'usamat bin manqadha, tahrir filib htyi, alaietibaru, t1, 1420h - 1999m, dar alkutub aleilmiati, lubnan, bayrut 'usamat bin mnqdh: almanazil waldiyaru, tahqiq mustafaa hajazi, dar suead alsabah lilnashr waltawziei, alqahirat, t2, 1992m 'usamat bin munqudhin, libab aladabi, tah, 'ahmad muhamad shakir, dar tirathiat lilnashr waltawzie, alqahirat, misr, t 1407.

Alraqab, shafiq, shueara' shamiun fi aleasr al'ayubii, t1, 2009m, dar yafaan aleilmiat lilnashr waltawziei, s54.

Samiat eabd alrahmin, nayqulay baridiayiyf, alruwyat al'iibdaeiat lila'anaa walakhir: dirasat fi alwujud al'iinsanii, muqalatan fi kitab jadliat aldhdhat walakhar fi althaqafat alearabia (abihath wa'awraq eiml), markaz aldirasat al'iinsaniat walmustaqbaliaati, kuliyat aladabi, jamieat eayan shams, 2002.

Eimad aldiyn al'asfhani: kharidat alqasr wajaridat aleasr (qsim shueara' alshsham), th: shukri faysil, j1, almutbaeat alhashmiat, dimashq, suria (d, t), 1375h, 1955.

Alkilani, al'amir alfaris wal'adib alshshaeir 'usamat bin manqidh -syrt hayatih −.

Nuri humudi alqysy: alfurusiat fi alshier aljahili, dar altadamun, baghudada, t1, 1964.

Yaqut alhumwi: muejam al'adba'i, th: 'iihsan eabbas, j2, dar bayrut lilnashr waltabaeati, bayrut, lubnan, (d, t), 1995m